

الأشكال و جناسها في الأغاني و الأهازيج الشعبية أو ما يعرف عند العامة بـ (علم التجنيس)*

**
محمد الحبيب حشلاف

إن عدم معرفتنا للفنون المستعملة في أغاني الأجداد لا يسمح لنا أبداً أن نزعّم أنهم كانوا يعيشون في عالم ثقافي لا فن فيه. إن مستوى فنونهم الغنائية التي تركوها لنا يدل دلالة واضحة أنهم عرفوا عموداً كانوا فيها على قدر معين من التحضر و التقدم، و رغم الظروف الصعبة و الأزمات التي كانوا يعيشونها فإن أغانيهم و أشعارهم تؤكد على المكانة المرموقة التي كانت تتمتع بها الأغنية عندهم.

إن العدد الهائل من الأنواع و الأشكال المستعملة في أغانيهم يؤكد على مدى تقدمهم في صناعة الطرب و الغناء، إن هذه الفنون التي تزخر بها الأغاني و الأهازيج الشعبية و التي لا نعرف عنها نحن إلا القليل هي أيضاً دليل على مدى تفنن أصحابها و اعتنائهم بفن الغناء و الطرب و ذلك رغم انصراف أغلبية الناس و ابتعادهم منه.

* أنجزت هذه المحاضرة لتقدم بمناسبة " اللقاء الأول حول الشعر الشعبي الملحون " الذي نظم بالمكتبة الجهوية لوهـران من 26 إلى 27 نوفمبر 986 .

** كاتب كلمات إذاعي جزائري من مواليد سنة 1924 توفي سنة 2005. اهتم كثيراً بالشعر الملحون و له فيه من المطبوع : " من وحي الألم" (2000) ثم "ديوان الشيخ التلمساني بومدين بن سهلة" (2001) ثم "ديوان الشيخ الخالدي" (2003) ، منشورات ANEP، الجزائر، بالإشتراك مع محمد بن عمرو الزرهوني. نشر قبل ذلك، سنة 1993، مع شقيقه أحمد، كتاب عنوانه: " Anthologie de la musique arabe 1906-1960 ", éditions Publisud.

إذا تمعنا جيدا في فواصل الأغنية الشعبية و أشكالها نلاحظ أن كلماتها تأتي قطعا و أسماطا عددها و جناسها يختلف باختلاف الأعراس والمذاهب، فمنها ما هو ثنائي و منها ما هو ثلاثي و هناك الرباعي والخماسي و المسدس و السباعي، الخ. و تحمل كل قطعة من هذه القطع إسما يميزها عن غيرها من الأشكال و يضيفون لها إسما آخر يميزها عن غيرها من الأنواع، و هكذا يكون لكل قطعة إسمين أحدهما يشير إلى النوع(الشكل) و الآخر يشير إلى موقعها في الأغنية.

فمن الأسماء التي تشير إلى الشكل و النوع :

"العشاري"، "المربوع"، "الفردى"، "المردوف"، "الواحد و نصف"، "العريض"، "القاصف"، "القائدي"، "الملقوط"، "الاعرج"، "الطويل"، "بواييدة"، "الميكول"، "المقوص"، "زوج بزوج"، "المشريقي"، "الشاطروان".

و من الأسماء التي تشير إلى الموقع الذي وضعت فيه القطعة :

"الزريعة"، "الخماسة"، "الرحلة"، "الخرجة"، "المطلع"، "البيت"، "القسم"، "الريال"، "الكعبة"، "الصياح"، "الفراش"، "التوريدة"، "الهدّة"، "الركاب"، "الزغواية"، "الريشة"، الخ.

و تختلط هذه الأسماء مع بعضها فيقولون :

"رحلة عشارية"، "فراش رباعي"، أو "فراش سداسي" أو "بوستة" ويقولون "بيت ملقوط" و "بيت مردوف" و يقولون "ريال زوج بزوج" و غير ذلك من التسميات التي أخذناها من فحول الشعر الملحون في بلادنا الجزائر. و يحدثنا العلامة عبد الرحمان ابن خلدون في مقدمته عن أشكال الأغنية التي كانت مستعملة في عهده.

وصف ابن خلدون "المربوع" و قال عنه ما يلي :

"... و لهم فن آخر كثير التداول في نظمهم، يجيئون به مغصنا على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة في رويه، و يلتزمون القافية الرابعة في كل بيت الى آخر القصيدة..."

و من أشهر قصائد "المربوع" عندنا في بلاد الجزائر منظومة الشيخ بن يوسف¹ التي يقول في مطلعها :

يا ذا الركبة ما بيك * ذي دعوة طالت بيك
نطلب ربي يشفيك * العالم مولايي

الى أن يقول :

ذا لي عام و شهرين * مكتوف من الرجلين
حالي حال المسكين * لا من ظل عليا
ناديت و لا من حار * صدوا عني الاخير
ها ذرك عقلي حار * غابوا ناس النية²

و تستمر القصيدة هكذا "مربوع" تلو الآخر حتى النهاية. و من القصائد التي استعمل فيها المربوع منظومة الشيخ³ الحاج محمد بن قيطون بن سيدي خالد المعروفة بقصة (حيزية):

يا حسراه على قبيل * كنا في تاويل
كي نوار القصيل * شاو النقضية
ما شفنا من دلال * كي ضي الخيال
راحت جدي الغزال * بالزهد عليا

¹ من أشهر فحول شعراء الملحون بالزيبان، من مواليد مدينة بسكرة، كان في مطلع هذا القرن، له أشعار كثيرة و هامة جلها في المدح و التشوق الى البقاع المقدسة، ديوانه لم يطبع بعد.
² يحدو فيها حدو الإمام البصيري صاحب البردة التي توسل بها إثر مرض عضال أصابه فشفاه الله.
³ تستعمل كلمة شيخ عندنا بمفاهيم ثلاثة : شيخ القبيلة الذي هو اليوم شيخ البلدية و شيخ التعليم المدرس و الشيخ الشاعر المغني و للكلمة مؤنث "شيخة". و التسمية استعملها العرب في أيامهم من ذلك تسميتهم البيروني بالشيخ لوسعة معارفه. هو أبو الريحان محمد بن احمد البيروني والمكي(973هـ/1048م).

و من الربوع ما ينسبونه إلى (قوما بن فسوف) و هو أحد أبطالنا الثوار
بوادي سوف بالجنوب الشرقي الجزائري القي عليه القبض في عام 1920م
من طرف الباي التونسي.

و سأله هذا الأخير عن رغبته الأخيرة قبل ان يقتل فقال يخاطب نفسه
أولاً⁴:

يا نفسي رومي العجاج الطايب * الهربة فدام الاعداء خايب
الاجل يقتل و الرصاص أسبايب * عمران قصف ما الطولوش الذلة

و يقول في هذه الطريقة أيضا يخاطب الباي :

تمنيت مماتي جات بين انزالي * و تخرج يا باي بعساكرك اتشالي
حتى يولي الدم على البدالي * و تشوف يا فسوف ذوق العلة

تطور الربوع مع الزمن و أضيف له شطران و سمي في هذه الحالة
"المردوف" و المردوف مشهور في المغرب و في المشرق، استخدم في الكثير من
القصائد و الأهازيج الشعبية، و منه للشيخ التلمساني ابي مدين بن
سهلا(18م):

كيف حيلتي يا سادات * الغرام ساكن فالذات
ما عطا عليي تلفات * لا طبيب يعرف دايا
(المردوف)- اعدمت و الروح افنات * ساق لي بقوم اقويه

⁴ ترجم له الأستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم في تعليقه عن (إليادة الجزائر) و قال عنه: "...الشيخ
غومة بطل الصحراء عميد قبيلة المحاميد، القبيلة الليبية المشهورة بأمجادها و بطولاتها، إلتجاء الى
سوف حين وقع في كلابة الجيش التركي من الجهة الليبية، و جيش الباي من الجانب التونسي
فكانت سوف ملجأ أميناً له، و التاريخ يذكر شجاعته، و الآداب الشعبي يزخر بملاحمه المتداولة
لحد الآن في الأفراح و الأعراس.

و منه للشیخ عیسی الاغواطي(1737م)⁵:

نبغي نجع اجواده املاح * فيه ابطال يحبوا النطاح
و اجحاف اتبان مع الصباح * جیر ایوشح فی داره
(المردوف) - فیهم غید ایحبوا الشباح * فكوا للزین انظاره⁶

و من المربوع(المردوف) المستخدم فی القصيدة هذه القطعة :
یا عاشق یا عشیق * اترك سهوك فيق
هذا البحر غميق * ما هوش اسواقي
سال احبار الطريق * و اشياخ التوثيق
من طعنوا ذا المضيق * نعم العشاقی

و منه آخر یضيفون له غصنين و یسمون ذلك(ريشة المستخبر) و مثاله
قول الشاعر:

یا قلبی واش بیك * تهوى من یجفیک
دايم تايه عليك * طول بعدابك
أنا خفت عليك * یا قلبی یفنیك
و الهجران الهلیك * هما اسبابك
لاتامن شیء اخطیک * شیء لا یجرى لك

⁵ هو والد سيدي احمد الخنوس صاحب قصيدة (الدبيش). كان في مطلع هذا القرن و اسرتهم تنتسب الى الوالي الصالح سيدي الحاج عيسى الاغواطي شهير الطريح بمدينة الاغواط و المتوفى في مطلع القرن العاشر الهجري ذكره سيدي بن عودة في جفريته.

⁶ و منه لشاعر مشرقي و من المعروف في بلادنا: يا ظريف الطول وقف لاقل لك * رايح عالغربة بلادك احسن لك * خايف يا محبوب تروح و تتملك * وتعاشرون الغير و تنساني انا * ما يروى عطشان الا من يدك * و كل يوم بفرقتك عنا سنة.

و منه مع التزام القوافي الخارجية و يسمونه السرب⁷:

لوكان يهديك ربي * الاسلام راها قريبة
و تعود يا محبوب قلبي * و الكفر عضة صعبة
يا ما اصعب الحب ايهبي * خلف دموعي اسكبية
ما صبت لا وين انخي * فالجسد طلعت غصيبة
جمد الماء ذا العروبي * عار من فارق حبيبته

و من أقدم المنظومات في "المربوع" أغنية (الصنهاجية) التي جأت على حروف الأبجدية يقول فيها صاحبها:

(أ) — اصادني ما صاها * اصادني مرض الهوى
ان فؤادي قد كوى * من حب الريم المغنجي

(ب) — بهاها حسن جميل * و لا يرى لها مثيل
في ذا الزمان الا قليل * في جيلنا و ما يجي⁸

قيل ان هذا النوع من النظم "المربع" هو ما يسمونه في المشرق (الهوراني) نسبة الى حوران الشامية، الا اننا نجده بهذه الصورة نفسها في اغاني الطوارق و غيرها من الأشعار التي تستخدم فيها اللهجات الأمازيغية المختلفة، كما ان ابن خلدون في قوله (و لهم فن آخر) كان يتحدث عن سكان المغرب العربي⁹.

⁷ هو أقرب إلى المزدوج منه إلى المربوع.

⁸ أوردها سونك في ديوانه مع بعض التحويرات. هي من شعر الثامن أو التاسع الهجري.

⁹ أنظر "الفلكلور الغنائي عند العرب"، تأليف نسيب الاختيار، سورية، ص.93.

و امتزج "المربوع" مع غيره من انواع النظم و تجانس في القصيدة الواحدة، و سميت هذه العملية عملية جناس الأنواع الشعرية (علم التجنيس) والتجنيس فرضته الرغبة في تلوين الألحان في الغناء و الربوع. فهو اما مطلع او بيت او خماسة او غير ذلك حسب الأعراف و المذاهب.

و من أنواع النظم المستعملة في أغانينا الشعبية " الزوج بزوج " و قاعدة صناعة هذا الفن تقتصر على التزام القوافي في كل بيتين مع تلوين الروية. وهذا النوع هو الشائع عندنا و منه الكثير في أعاريض مختلفة. وصفه ابن خلدون في المقدمة بقوله (...واستحدث اهل الأمصار بالمغرب فنا آخر من الشعر في أعاريض مزوجة كالموشح، نظموا فيه بلغتهم الحضرية أيضا و سموه عروض البلد...).

و منه لابن الشجاع :

تعب من تبع قلبه ملاح ذا الزمان * امهل يا فلان لا يلعب الحسن فيك

ما منهم مليح عاهد الاوخان * قليل من عليه تحبس و يحبس عليك

و منه لسيدى سعيد المنداسي¹⁰ :

سرور الدهر مقارنة قالوا بالحزن * ان كنت فطين خذ منها حذر شديد

يظهر لك في اليمين منه تاج الحسن * من اليبيريز في شماله قيد حديد

أخذها من قول الشاعر العربي :

سرور الدهر مقرونا بحزنه * فكن منه على حذر شديد

ففي يمينه تاج من نضار * و في يسراه قيد من حديد

¹⁰ هو ابو عثمان سعيد المنداسي و التلمساني من مواليد مدينة منداس قرب تيارت، تعلم و علم بتلمسان، انتقل إلى مراكش و كلف بتعلم المولى اسماعيل بن علي. من أشهر قصائده العقبة، وضع لها شرح ابو راس الناصري و هذا الشرح مخطوط لم يطبع بعد. جمع المرحوم الشيخ بخوشة البعض من أشعار المنداسي و نشرها تحت عنوان(ديوان السعيد المنداسي)، 1968.

و من "عروض البلد " أو ما يعرف عندنا باسم " الزوج بزواج " قصيدة
الشيخ بوديسه التي يرثي فيها فرسه . يقول :

خبرني واش بيك يا عودي يهديك * حشمتك بالنبي و عيسى بن مريم

حشمتك بالنبي توريني ما بيك * ما نعرف واش بيك ذا الشيء معظم¹¹

و تستمر القصيدة هكذا ملتزمة القوافي الداخلية و الخارجية حتى نهاية
القطعة. و هذا النوع من النظم هو السائد عندنا سيما في أشعار البادية. سماه
المرحوم الأستاذ رابح بونار(الشعر الهلالي)¹².

و للمزدوج صيغ و أعاريض كثيرة يحتفضون فيها بالشكل و يتصرفون في
العرض و الصيغ و الوزن. من المزدوج للشيخ محمد بن قيطون بن سيدي
خالد البسكري:

أرقت عدة من الامواس * و لقيتها الكل انصالي

ما يجرحوا ما يحففوا راس * ما ينجروا عود بالي

و للمجدوب¹³ و عيسى الاغواطي و سيدي بولعويدات البوزيدي¹⁴ و غيرهم
أقوال كثيرة في هذا الشكل المزدوج و في عروض مختلفة، مثلها قول الشاعر:

¹¹ أوردها محمد بالحلفاوي في " ديوان" جمع فيه بعض المنظومات الكثير منها مشوه و مبثور. أما
المنظومة المعنية فإنه ينسبها إلى الشيخ ابن السويكت شاعر سويد المشهور(1061هـ) على ان القصيدة
يذكر فيها صاحبها اسمه و وظيفته اذ كان قائدا ثم باش آغا بمدينة القصر. يقول بوديسه في خاتمة
القصيدة :

من تونس للجريد و فاس يهاتوا بيك * عرفوك و عارفين بوديسه ينظم
لاغا يا من تسال ما يتلفش عليك * قصري ولد اقصور من الشاوا محزم

¹² مجلة " آمال"، العدد 4، الخاص بالشعر الملحون.

¹³ هو عبد الرحمان بن عياد، أخذ العلم بفاس عن الشيخ أحمد بن الحسين العبدلي
الساهلي(1555هـ)، تفرغ للتدريس بفاس ثم مكناس و بعد أداء فريضة الحج تصوف و لبس الخرقه و
تجول في شوارع المغرب العربي الكبير. اعتنا بتدوين أقواله كل من محمد ابن عزوز حكيم ثم

لوكان جات للصبر نصبر * حتى الوجدك تروفي
أنا خوفا من العمر يقصر * و انموت و انت تشوفي

و منه أيضا قول الآخر :

صبحت على ناير الخد * يا من درى يقبل صباحي
زينت البها زينت القد * هي السباب في جراحي

و منه أيضا :

لا تاخذوبه من هنا * و لا تجوزوه على ناسه
حب البنات كي الحنة * عند ساع يفسخ لباسه

و منه في الوعض للمجدوب :

احرث زرعك و نقيه * و فالصيف خرج عشوره
و من غير ربي و نبيه * حتى عربي ما تزوره

و هناك فن آخر من أشكال النظم يسمونه " المَلْعِيَّة " يتألف من ستة غصينات يلتزمون فيه القوافي الداخلية و الخارجية مع تلوينها. يقول ع ابن خلدون في سياق حديثه عن هذا الفن (أنه من إستنباط أهل تونس و أنهم هم

دوكستري ثم نور الدين عبد القادر ثم سيلاس ميل و بخاري خليفة. و هو أول من سما هذه الأشعار(رباعيات) لأنها تاتي في أربع أقطار. و هذا يعود لعدم اعتنائهم بالجانب الشكلي. و الحقيقة فإن أقوال الرجل فيها المربوع و الملعبة و غير ذلك من الأشكال الشعرية.

¹⁴ هو جد أولاد سيدي بوزيد. هو سيدي حميدة بن سيدي الحطاب بن اليزيد الملقب بولعويديات دفين جبل تافنسة المطل على قصر البخاري، له أشعار كثيرة على طريقة الكشف.

من سموه بهذا الإسم). و لاحظ الأديب التونسي المرحوم الأستاذ محمد المرزوقي في كتابه (الآداب الشعبي) و قال ان هذا الفن يخص غالبا (الملاحم) غير انه لم يأتي بشواهد على ذلك. و مهما يكن فإن اللعبة كانت في القرن العاشر الهجري على الشكل الذي استخدمه الشيخ عبد الرحمان المجدوب في قوله :

المجدوب اسمي المجدوب * و اسم بويا حقيقي
راني نوفي المكتوب * و ما لحقته في طريقي
من خان يعود معطوب * و لو خويا شقيقي

و من أقدم النماذج أيضا قول بعضهم :

العين تنظر فالعين * و سالوا دموعها سواقي
العقل راح مع الزين * و الحب فالقلب باقي
تجفأى يا شهلت العين * واش ايصبرك على فراقى

و منها لشاعر تونسي لم يذكر اسمه :

الايام عديتهم مرض * و اسباب مرضي غيبنة
نمشي جهامة على الأرض * في وسط سوق المدينة
خايف من كشفت العرض * و شماتت الناس فينا

و من اللعبة للشاعر الأوراسي :

بالله يا محفل اللوم * فيكمش ولفي الفلاني
ظالم و يقول مظلوم * و الظلم ما هوش مني
ما يحس بجمرت المهموم * الا اللي فكره مهني

و قال ع ابن خلدون في المقدمة (...استفحل فيه الكثير منهم و نوعوه أصنافا الى المزدوج و الكزي و الملعبة و الغزل، و اختلفت أسماؤها باختلاف ازدواجها و ملاحظتهم فيها...) و من الغزل قول الشاعر :

يا دارنا وين ناسك * الي سكنوك راحو
حرقوا قليبي بلا نار * و دموع العين ساحو

و الملاحظ في هذه الكيفية ارسال القافية الثالثة مع الاحتفاظ بالقواعد الأصلية للمزدوج. كقول الشاعر:

يا قلب راك مهموم * يا الروح راكي فنتي
قولوا لمراصم اقبيل * من الحبيب راك خليتي¹⁵

و كقول الآخر :

يا قلب كون صبار * و اصبر على ما جراك
ارقد على الشوك عريان * حتى يطلع نهارك

و جمع الناس بين هذا الفن و بين المزدوج في المقطوعة الواحدة و هذا الجنس كثير الاستعمال عند شعراء المدن و الحواضر و يستخدمونه في (المستخبين) و في الغناء الفردي.

و منه :

يا ريح سلطان الارياح * حبست عليك فلانة
مولات الخرص الذباح * قدها غصن الخيزرانة

¹⁵ يستعملونه أهل الأوراس في " الغرائدي " الذي هو غناء فردي لعله مشتق من (التغريدة).

في كل ساعة تزيد تملاح * و في كل وقت اتزيد خانة

يا ما اكثر خيرك مع الناس * و ما اقل خيرك معنا

و منه أيضا :

جبيت على مرقد الطير * نلقى حجلة في مراحه

مطروز في سلك و حرير * و التبر هو اشباحه

شبيت و قتلته خير * ما رد و فدفد جناحه

شكيت مدقوث في حجاه * و الي دقوه راحو

عرف المغرب العربي الإسلامي بعد سقوط غرناطة نكسة سياسية خطيرة ضيع الإنسان العربي فيها آماله و ثقته في الحكم و الحكام، فانكمش وانطوى على نفسه و استسلم للأمر الواقع و انغمس البعض في الملذات و شرب الخمر باحثين على النسيان و كانت فرصة ساعدت في نمو الفنون الجميلة و الشعر و الطرب و الغناء بوجه خاص. و ترك البعض الآخر الماديات و التفتوا الى العبادة و الذكر و الخلوة، و انتشر حينها التصوف الذي كان قد شغل قسما موفورا من الناس، و تعددت الطوائف الدينية وامتألت المزارات و المساجد و الزوايا بالمنشدين و تنافست حلق الذكر و عرف الشعر الملحون عهد ازدهاره و تطورت فنونه و أشكاله و تفنن الناس في تجميل أغانيهم و مدائحهم و كان من حرصهم أنهم استنبطوا فنا (علم التجنيس) و هو مجموعة قواعد و مذاهب خاصة بفن جناس الأشكال و الفنون الشعرية السائدة في ذلك العهد، و قسموا (علم الموهوب) الى فنون يتعلمونها أبا عن جد.

و قسموا الشعر الملحون الى الوزن (الدندانة) و هي طريقة لأستقامة الوزن و فصلوا الشعر الى "وزن" و "صيغة" و "نوع" و هلم... و يتأكد هذا في الزجل بوجه خاص و في غيره من الغناء.

على ان هذه التحولات و التطورات التي عرفتتها أشعار العامة، لم تكن مجرد عامل ذاتي صادر على شعور الشاعر وحده، و إنما كانت وليدة

التحولات التي طرأت على حياة المجتمع. و من تلك الابتكارات الفنية المستحدثة، ما زالت القصيدة القديمة حتى اليوم تعتمد على الغصن الواحد في تركيبها.

هو غصن منفرد يضاف إلى بعض الأقسام بغية تنسيقها مع غيرها. و لهذا الغصن الواحد تسميات تختلف باختلاف الأغراض و المذاهب. فمنها ما هو "ريشة" و منها ما هو "ردمة". فالريشة تأتي في الفواصل التي يستعمل فيها الإيقاع في الغناء، أما الردمة فهي للغناء بدون إيقاع. و مثال ذلك قول الشاعر الشيخ الصادق الخالدي :

ذالي مدة ما جالست كحل اللوامح * واش ايلحقتني لرماق بوكمبيل

(الريشة) — لى يا قمري لله دير جميل

و مثاله أيضا قول الشيخ العربي السجراري :

ماني قاطع لياس ما دركني طموع * في طوعك يا من لا بغيت تليان

(ريشة) — كي داير رايك يا هلال رمضان

و الريشة لا تقتصر على المطلع بل نجدها أيضا في بعض الفواصل الداخلية التي تتألف منها القصيدة و يكون في هذه الحالة جزءا من القسم يلتزم قافية و وزن "عجوز" المطلع كقول المغراوي :

يا من نرجاك اتجود فيدني بالكلام (بهواك اظهر تفياشي)

الى أن يقول في القسم الثاني :

نظفر وجه المطلوب بالزهو و اللعاب (ريحك هلك شراشي)

و يتخلل بعض القصائد فواصل يسمونها (صياح) و قيل (عروبي) و قيل (استخبار) و هي بالجملة مجموعة من الغصينات منها المزدوج و فيها الخماسي و السباعي، يرددونها بدون إيقاع و يستخدمون فيها الغصين

الأخير للخروج به من فن إلى فن و يسمون هذا الغصين ردمة كما أسلفنا،
ومثال ذلك قول سيدي محمد بن مسايب التلمساني :

ادخلت بلاد الهناء و بلاد العز * و استانس خاطري بتونس و هواها
زرت المجدوب و الولي سيدي محرز * و جميع الصالحين نطلب مرضاها
(الردمة) — عند أهل الخطوات الايام سواها

و مثاله للشيخ ابن الشاهد¹⁶ :

قم اتشوف النوار في احراجه مكمول * سلطان الورد فاتح ايمينه و شمالي
صايل بعساكره ملك صحراء و تلول * بند بعمايمه ايحير الاتجالي
أنظر للزان و الدمام مع القندول * و استنشق يا لبيب الازهار ابحالي
(الردمة) — تنفي الاكدار حين و تروح سالي

إن الشعر الملحون هو أولا و قبل كل شي كلمات أغنية تخضع كغيرها
من الأغاني الى (دندانة) لا بد من معرفتها للتمكن من معرفة أصول تراكيب
هذه الأغنية .

لقد دون الناس البعض من أسماء الأشكال المستخدمة في الملحون ، من
ذلك ما ورد في (الأقنوم) لأبي زيد الفاسي وهو يتحدث عن (أوزان الشعر
الملحون) يقول :

(رجز) — علم بأنواع من الملحون * وردها الضابط الموزون

له من الأوزان خمسة عشر * على الذي كثر فيه و اشتهر

أولها الشرقي الكبير و الثاني * شرقي صغير باختلاف الأوراني

و الثالث الشرقي الصغير صاحب * التاء فيه زائد يناسب

¹⁶ هو سيدي محمد بن عمار بن الشاهد، مفتي المالكية بالعاصمة، كان في مطلع الثامن عشر الميلادي
ترجم له الأديب الجزائري الأستاذ أبو القاسم سعد الله في تاريخ الجزائر الثقافي.

و الخامس العواد و المرشوق * ثم المزدوج الذي يليق
وبعد البهلوان و المسلاوي * و بعد الفقر كذا العذاروي
و بعد الحورشة العشاري * ثم العروبي و القصيد الجاري

يذكر صاحب الأرجوزة ثلاثة ألوان للمشريقي (المشريقي الكبير) و (المشريقي الصغين)

و (المشريقي صاحب التاء). و المشريقي السائد في الملحون عندنا مثاله ما جاء به سيدي سعيد المنداسي في (ليلي يا زائرين ليلي) حيث يقول في خاتمتها مشيرا إلى أنها من النظم المشريقي كما يذكر الشهر و العام الذي قيلت فيه. يقول :

هاك الدر النفيس الأزهر * مما ركب سعيد في سلك اليبيريز
في مولد الماحي المطهر * شهر ربيع الفضيل عند الناس اعزيز
فالسبع و ستين شاع و اظهر * بعد الألف عام باح بالفاظ التمييز
في من نهوى انشيت حلة * بالنظم المشريقي اتخايرها الافضال
بين يدين الملوك تتلى * محبوبة عند ذكرها تنصت الاقوال

ومن أقدم النماذج لهذا النظم في القرن التاسع للهجرة قول سيدي الاخضر بن خلوف المستغانمي :

اللهم صلى و سلم * طول الدهر على نبينا
قد نجوم الليل الادهم * والامطار النازلينا
والسلف و الحوت الابكم * في البحور الغامقينا
اغزل في خشبة مسدى * و المنسوج قميص وردا
اشعر سلك حرير ديدي * ما حملت بضناه دودة

يلاحظ ان المشرقي هو في واقع الأمر خليط امتزج فيه (المزدوج) بفن (الملعبة)، و من الأنواع التي وردت في الأقتنوم (العشاري) و هو الشايح في الجزائر.

تروي الأسطورة الشعبية (... أن الشيخ سعيد المنداسي لما قدم المغرب الاقصى و لقي الإكرام و التقدير من المولى الرشيد، حسده شعراء البلاط هناك و عابوا عليه شعره قائلين ان موازين إيقاعاتها يقدر على الإتيان بمثلها صبيانهم ذلك لأنها تأتي على حرفين فقط و ليس فيها أي صناعة تذكر) — هذا، و بالفعل فإن (العشاري) حرفان أو قافيتان يلتزمونهما حتى نهاية القطعة، و مثال ذلك قول الشيخ عبد الله بن كريبو¹⁷

قمر الليل خواطري تتونس به * نلقى فيه اوصاف يرضاهم بالي
يا طالب عندي خلية تشبه ليه * من مرغوبي فيه سهره يحلالي
انبات نقسم في الليالي ننظر ليه * يفرقتي منه الحذار التالي
خايف لا بعض السحابات اتغطيه * واذا غاب ضياه يتغيثر حالي

ومن المنظومات التي جاء فيها أسماء (أشكال النظم) هذه المقطوعة المعروفة عند فحول الشعراء باسم (الديوان) وهي أيضا (عشارية) ولعل ناظمها من سكان الجنوب الصحراوي أو من المتأثرين بكيفيتهم في النظم :

سلمتك بوصايتي تقرا الاشعار * والحمد لخالقي العالي التقدير
من يدخل بحر المواهب والاسرار * يتهلّى فالقاعدة يثبت في السير
واعلم ان الشعر جملة من الافكار * قمنة و لباقة اتهنديز و تفكير
صنعة موهوبة اينالوها الشطار * عقد اموثق يكسبوه اهل التيسير

¹⁷ هو الشيخ عبدالله بن بلقاسم بن كريبو التخي الاغواطي المولود عام 1845 م و المتوفى بمدينة الأغواط عام 1921م أخذ عن الفقيه الشيخ الأزهري مقدم الزاوية التجانية. توفى و تقلد مناصب القضاء. له ديوان يفوق 32 منظومة مخطوطة عندي. كان السماتي من أصدقائه، قيل أنها دارت بينهما مساجلات شعرية إلا أننا لم نعثر عليها بعد.

بيت وهدة فراش وامطالع وادوار * توريدة وريال و الريشة تقدير
و انواع الفن بعد واحد ثلاث اعشار * محصية و متوخرة من دهر اكبير
القصيد الشايعة هلال في كل اقطار * و زوج اقوافي نال فيها بن بلخير¹⁸
عشاري و مخمس اقصورى مختار * وهيل يلا كيل كي قصيدة بالباشير¹⁹
مرفوع ومخفوض ذو نوعين اخيار * و ارباعي باشكال منه جنس اكثير
محدوف و مجرور واعرج عاليسار * واعرج عالمين و امخلل و قصير
والمصمودي مع القبلي والزخار * و طرابلسي و ساحلي ساهل و عسير
و البروالة مع المزوكي والكنار * و الشرقي قالوا قصير قلت اكبير
العواد مع المشرقي نوعين احرار * غيل انواع الزجل خشوا للتقصير
و تأمل فالمزح كان انت عيار * والبهلوان والمسن و شوف الدير
و المسنواوي المغربي مكسور اشطار * ومن تركيب الففر عاين بالتحذير
و العذراوي فالحجا يفجي الدمار * ثابت وزنه يشبه التشنبار اغزير
ومخالف للوان جا دندانه حار * و ازن روحه اتقول غيل بلا بندير
و الموال اشكال معلومين أكثر * و يا مزين السايحي لوكان اقصير
و الحوراني مركب على ريع اشطار * شوف ابن العفون يعطيك التفسير
هذا الشايح يا ابني في ذو الاقطار * و العالم ربي الله بالسر اخبير
و اسمع للغرب ياسرين انواع اطوار * اعنى من خمسة و عشرة في التقدير
و في الخضرة الانواع زينة جات اخيار * فالملزومة مركبين بفن اشهير
ادعي بالرحمة للاشياخ الاحبار * و اهل الموهوب كلهم شايب و صغير
ترحمني أنا و بوييا يا غفار * و اما والدتي و اهلي يا قدير

¹⁸ شاعر الرزيقات من الشعراء الثوار، كان من رفاق الشيخ بوعمامة، ترجم له الأستاذ بوعلام ابن

السائح و انفرد له بجزء هام من تأليفه. نقل جزء من حياته إلى التلفزة.

¹⁹ هو الشيخ عدة بن البشير التحلايتي، أصله من سجراة، كان بالعاصمة و رثاها إثر الغزو الفرنسي. له قصائد كثيرة في مختلف الموضوعات.

و من القصائد التي ذكروا فيها أنواع النظم، قصيدة مطولة للشيخ الشاعر الحاج عبد القادر بن سعدون المستغامي²⁰ يمدح فيها الرسول الأعظم صلى الله عليه و سلم و يقول في خاتمتها:

خد آراوي خصائص الغيوان * اللي بعد السبع انواع²¹ هزل وجد²²
عواد مع المردوف ضيف له العرجان * الشرقي و الغربي انواع تتردد
المرشوق والزلاغ و نصف بهلوان * مشرقي و الشرقي الغير لمقيد
مغراوي و عروبي و عد شاطروان * و عشاري و رباعي الاسمن و شهد
و شطبية لاقح جات فيه الوان * و الفردي و زوج بزوج عدهم واحد
جود عليا برضاك يا عظيم الشان * و اجعلني يوم الحشر في جوار احمد

و قبل الختام نلاحظ أن موضوع "الأشكال الشعرية في الأغنية الشعبية" ما يزال في بداية البحث كما نلاحظ أن بعض الأدباء بين قوسين سمحوا لأنفسهم فألسقوا ببعض الأنواع أسماء اخترعوها اختراعا يتشدقون بها في المجالس ضنا منهم أنهم بذلك يبرهنون على عدم جهلهم للموضوع.

²⁰ هو عبد القادر بن بلقاسم بن سعدون، توفي بمسقط رأسه مستغانم عام 1922 له قصائد كثيرة لم تنشر بعد.

²¹ يعني الفنون السبع (القرىض، الموشح، الدوبيت، المواليا، الكان و كان، الزجل، القوما).

²² يصنف فن الغناء إلى هزل و جد، فالجد هو المدائح و الأغاني الدينية و التربوية، و الهزل هو غير ذلك.